رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر.

صدر منها:

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية "طبعة ثالثة"
للشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف "طبعة ثالثة"
الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية "طبعة ثالثة"
اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم "طبعة ثالثة"
الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري "طبعة ثالثة"
الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري "طبعة ثالثة"
الدكتور محسن عبد الحميد
- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين "طبعة ثالثة" "طبعة إنجليزية"
الدكتور نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي "طبعة ثانية"
عمر عبيد حسنة
- أدب الاختلاف في الإسلام "طبعة ثانية"
الدكتور جابر فياض العلواني

- التراث والمعاصرة "طبعة ثانية"
الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب: الحلول المطروحة والحل الإسلامي "طبعة ثانية"
الدكتور عباس محجوب
- المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل "طبعة أولى"
عبد القادر محمد سيلا
- البنوك الإسلامية "طبعة أولى"
الدكتور جمال الدين عطية
- مدخل إلى الأدب الإسلامي "طبعة أولى"
الدكتور نجيب الكيلاني
- المخدرات من القلق إلى الاستعباد "طبعة أولى"
للدكتور محمد محمود الهواري

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأنزل القرآن تبيانًا لكل شيء وتعهد بحفظه فقال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنا ٱلذِّكرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ بينما وكل أمر حفظ الكتب السماوية السابقة إلى أهلها بقوله ﴿ . . . بِما آستُحْفِظُوا من كِتاب الله وكانوا عَليه شُهداء ﴾ ولعل هذا التعهد بالحفظ ، من لوازم الرسالة الخاتمة الخالدة ؛ حتى يصل خطاب التكليف سليماً لكل إنسان ، مجردًا عن حدود الزمان والمكان ، ويكون البيان النبوي صحيحًا فيصح التكليف وتتحدد المسؤولية وتتحقق العدالة . ويترتب الثواب والعقاب . ولقد استشعر المسلمون أهمية الأمانة ـ وهم أوعية النقل ووسائل الحفظ ـ فاشتدت عنايتهم من بدء الوحي بحفظ أسانيد شريعتهم من الكتاب والسنة بما لم تعن به أمة قبلهم ، فحفظوا القرآن ورووه عن رسول الله ﷺ متواترًا ، آية آية ، وكلمة كلمة ، وحرفًا حرفًا ، حفظًا في الصدور وإثباتاً في الصحف ، حتى رووا أوجه نطقه بلهجات القبائل ، ورووا طرق رسمه في الصحف ، لذلك اعتبر القرآن من الناحية الوثائقية البحتة أقدم وثيقة تاريخية وردت بالتواتر (إفادة علم اليقين) مما دعا بعض علماء النصرانية إلى محاولة التعرف على حقيقتها بما ورد في القرآن نظرًا لاضطراب أسانيدها .

وحفظ الصحابة أيضاً عن نبيهم ﷺ كل أقواله وأفعاله وأحواله ، وهو المبلغ عن ربه ، والمبين لشرعه ، والمأمور بإقامة دينه ، فكل أقواله وأفعاله وأحواله تقع في دائرة البيان للقرآن ، وهو الرسول المعصوم ، والأسوة الحسنة . يقول الله تعالى في بيان مهمته ﴿ وأنزَلنا إليك الذِّكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يَتَفَكرون ﴾ فجاء حفظ السنة والعناية بها ثمرة لازمة لحفظ القرآن . وامتازت الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم بالرواية والإسناد ؛ الأمر الذي لا بد منه للقيام بمهمة البلاغ المبين على الوجه الصحيح ، والتي اعتبرها الله تعالى سبيل النجاة بقوله ﴿ قل إنّي لن يجيرَني من الله أحدٌ ولن أَجِدَ من دونِهِ ملتحدًا . إلا بلاغًا من الله ورسالاته ﴾ .

وأمر بها الرسول ﷺ المسلمين في حجة الوداع أمراً عامًّا فقال : « وليبلغ الشاهد الغائب ، فإن الشاهد عسىٰ أن يبلغ من هو أوعىٰ له منه » وقال : « فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلَّغٍ أوعىٰ من سامع » وبذلك لم يقتصر الرسول ﷺ في أمره على أهمية النقل (الرواية) وإنما نبه أيضًا إلى فقه الرواية ووعيها (الدراية) وبهذا استحق المسلمون أن يرثوا النبوة ويستلموا القيادة الدينية للعالم بعد نكول بني إسرائيل ونقضهم للميثاق وتحريفهم للكلم .

وبعـــــد :

فهذا كتاب « الأمة » السادس عشر «الفكر المنهجي عند المحدثين » للدكتور همام عبد الرحيم سعيد ، في سلسلة الكتب التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر ، يأتي ليشكل إضافة هامة في التأصيل للفكر المنهجي ، والتحصين الثقافي ، والتميز الحضاري ، وضرورة العودة إلى الجذور

والينابيع الأساسية ، والتمكن من العلوم الأصلية لتراثنا ، واستئناف البناء على الأصول الحضارية والثقافية الإسلامية ، لتأتي انطلاقة الصحوة من مواقع صحيحة ، وتبنى على أصول سليمة ، وتحكم حركتها بضوابط شرعية ، وتقف على أرض صلبة في مواجهة الأعاصير والكيود والعداوات التي تحاصرها وتطاردها وتقاتلها لتردها عن دينها إن استطاعت . فتستأنف دورها في القيادة الدينية متجنبة السقوط في علل وأمراض أصحاب الأديان السابقة ، تؤدي رسالتها في البلاغ المبين ، وتتحقق بالصلاح المطلوب لعمارة الأرض والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني عن جدارة وأهلية .

ومن الحقائق التي هي محتاجة دائماً إلى التأكيد والتنبيه أن غياب المنهج وفقدان الضوابط الشرعية يؤديان إلى الفوضى الفكرية في الحياة العلمية والثقافية . يتمثل ذلك في ضياع المقاييس ، وكثرة التكرار والاجترار ، والتبعثر وضياع الرؤية الشاملة ، وعدم إبصار الأولويات ، وتوالي النكسات الفكرية والسياسية ، والاجتراء على دخول الساحة الفكرية ومحاولة المساهمة فيها ممن يحسن ذلك ومن لا يحسنه ، والاجتراء على القول في الدين وتفسير مقولاته ونصوصه بلا فقه ولا علم .

ولم يقتصر ذلك على الذين يتحركون على الساحة الإسلامية بدون مؤهلات منهجية وعلوم أصولية ، يظنون أن القضية الإسلامية يمكن أن تعالج ، ومشكلات المسلمين يمكن أن تحل ، بمزيد من التوثب الروحي والعاطفة الفوارة والحركة العشوائية وذُهَان السهولة والتبسيط . بل انضم أيضًا إلى ساحة الكتابات الإسلامية وتقويم العمل الإسلامي ووسائل نشر الدعوة ـ إلى جانب أولئك ـ كتّاب من الخارج الإسلامي لبسوا أثواب الجرح والتعديل دون أن يكون لهم أدنى

نصيب من علم ، أو منهج ، أو حتى سلوك إسلامي ، وعلماء الحديث اعتبروا الذين يكذبون للرسول ﷺ كالذين يكذبون عليه ، وكانوا يقدرون الرجل لصلاحه ويردون حديثه لغفلته وعدم ضبطه ، وفقدان أهليته ، يقول الإمام مالك رحمه الله : إن من شيوخي من أستسقي بهم ولكن لا أروي عنهم الحديث . فلكل علم منهجه وأهله وضوابطه ، لذلك تبقى الحاجة ماسة الى كتابات مكثفة في المنهج ، بعد هذه الفوضى وبعد أن دخل حياتنا الفكرية كل من هب ودب .

ولا شك أن منهج المحدثين وقواعدهم انعكست على معظم العلوم والفنون النقلية ، فقلدهم في ذلك علماء اللغة ، والأدب ، وعلماء التاريخ وغيرهم ، فاجتهدوا في رواية كل نقل في علومهم بإسناده كما نراه في كتب المتقدمين ، فهذا المنهج في الحقيقة أساس لكل العلوم النقلية ، وهو كما وصفه أحد العلماء « منطق المنقول وميزان تصحيح الأخبار » . ومن البدهيات التي لا بد من إثباتها هنا أن مدرسة الحديث أو أهل الأثر كانوا هم السد العظيم الذي حال دون تسلل الخرافة وتفشي البدعة في الحياة الإسلامية ، وكانوا دائماً وراء حركات التصويب وإعادة الأمة إلى الجادة والوقوف بالمرصاد لكل دارس أو باحث أو عابد تضل به الطريق إلى درجة لم يعد يجرؤ معها أحد أن يقول في الدين دون تحقيق . وإن كنا نعتقد أنه لا بد مع القدرة على حفظ النصوص الحديثية من أهلية النظر والفقه ، والرسول ﷺ يقول : «فإن الشاهد عَسىٰ أن يبلغ من هو أوعىٰ له منه » .

لقد اجتهد علماء الحديث في رواية كل ما رواه الرواة ـ وإن لم يكن صحيحًا ـ ثم اجتهدوا في الاستيثاق من صحة كل حديث وكل حرف رواه الرواة ، ونقدوا أحوالهم ورواياتهم ، واحتاطوا أشد الاحتياط ، وحكموا بضعف الحديث لأقل

شبهة ، وقدموا الجرح على التعديل ، فكانت قواعدهم أصح القواعد للإثبات التاريخي .

ولا خيار أمامنا ـ ونحن نحاول النهوض من جديد ـ من العودة لتمثل العلوم الأصلية ، واكتساب المناهج التي قامت عليها حضارتنا وتراثنا . ذلك أن الذين حاولوا التلفيق ، والنهوض بالأمة من الخارج الإسلامي ، أخفقوا وساهموا بتكريس التخلف وتنميته ، لأنهم أخطأوا المنهج وقاسوا الواقع الحضاري للأمة بغير مقياسه الصحيح ، وقوّموا البناء على غير أسسه ، واعتبروا الحضارة الأوروبية وعلومها هي المقياس لكل حضارة ، ووسيلة النهوض لكل تقدم ، والتاريخ الإسلامي شاهد على أن أي نهوض لم يتحقق إلا من الداخل الإسلامي .

وعلى الجانب الآخر فقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضىٰ ـ وقد تعاظمت حركة الوعي الإسلامي ـ أن نقف مع العلوم الأصلية لنصلها بواقع الحياة بعد أن توقفت وأصبحت تجريدات بعيدة عن الواقع ، ومقولات نظرية ومنظومات محفوظة لا تلد فقهًا ولا تدخل واقعًا ، ولا شك أن هذه الدراسات المنهجية ليست مقدسة لذاتها ، وإنما تكتسب قيمتها بما تقدمه من نتائج تنعكس حضاريًا وثقافيًا على حياة الأمة ، لأنها في نهاية المطاف هي من علوم الآلة التي تكتسب للاستخدام ، وإن كانت عصور تخلف المسلمين جعلت منها غايات يُتوقف عندها ؛ ومن ثم لا تكون هناك أية تطلعات لتعدية الرؤية وانسحاب آثارها إلى فروع الحياة الإسلامية ، ومع الأسف فإن الكثير من هذه العلوم التي تشكل المنهج الأساسي للعقل المسلم لم يبق لها في حياتنا إلا القيمة التاريخية ، أما القدرة على تجاوز الماضي وصناعة الحاضر فلا تكاد تذكر .

إن التوقف عند عمليات الفخر والاعتزاز بإنجاز السلف سوف يشكل عبئًا

ومعوقًا ينقلب إلى ضده إذا لم يترجم إلى واقع يدفع الأمة إلى ترسم الخطوات السابقة . ولا بد من الاعتراف أيضًا أن الكثير من علمائنا ودارسينا اليوم يعجزون عن الإتيان بمجرد مثال آخر للقواعد التي أصَّلها السلف ! فكيف نكون والحالة هذه قادرين كأمة على الإفادة من هذه العلوم في حياتنا ؟

من نصف قرن أو يزيد ، ونحن لا نزال نطرح ونقرأ ونسمع عن ضرورة الإفادة من منهج المحدثين في إعادة كتابة التاريخ ، وتدوين الأخبار ، وأنه الطريق الوحيد لغربلة الرواية التاريخية وتنقية التراث ، وإلى الآن لم تخرج القضية عن طور الأمنيات ، ولم نستطع أن نغادر مواقعنا قِيد أنملة ، والمحاولات التي تمت في هذا المجال إنما هي محاولات فردية ، مأجورة إن شاء الله بإثارة الموضوع والسير خطوات في الطريق ، لكنها تبقى عاجزة تنوء بحملها الثقيل .

ومن الأمانة هنا أن نذكر المحاولة العلمية الرائدة التي قام بها أستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق ، في عرض الرواية التاريخية لمرحلة الفتنة الكبرىٰ في التاريخ الإسلامي ورجالها ، على موازين علماء الحديث ، والنتائج الهامة التي انتهىٰ إليها بعد أن أسقط رواية الرجال الذين لا يرتضي علماء الحديث روايتهم ، وأثبت براءة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين مما نسب إليهم الوضاعون وأعداء الدين .

وجهود الأخ الدكتور عماد الدين خليل في نقد المروي وموازنة الروايات ومقارنتها ، الأمر الذي أدىٰ إلى إسقاط الكثير من الروايات التي وردت في الطبري ـ في موضوع البيعة وخلافة الصدِّيق رضي الله عنه ـ وترجيح روايات الطبري الأخرى ، خاصة وأن الطبري وهو يعتبر الكتاب الأم للتاريخ الإسلامي

لم يعن بنقد الروايات التاريخية وإنما اكتفى بتسجيلها وحفظها وتقديمها للدارسين .

ومن الجدير بالتسجيل في هذا المجال أيضا المنهج المحكم الذي أصَّله عبد الرحمن بن خلدون ـ في القرن الثامن ـ في علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها ونقد المروي لاعتماد المؤرخين على مجرد النقل وعدم عرض الروايات على أصولها ، وقياسها بأشباهها ، وسبرها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة بالأخبار ، وكيف ضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط وأتى لذلك بالأمثلة الموضحة .

ويبقى المطلوب دائماً ، إشاعة علوم المنهج في الأمة بشكل عام ، واستمرار تناولها بالبحث والدرس والنقد والموازنة والترجيح حتى يشكل البحث في المنهج مناخًا عامًّا يُنشّأ عليه عقل الأمة .

لقد استطاعت أوروبة هضم المنهج الإسلامي في العلوم والفنون ، وأفادت منه بالقدر الذي تراه ، أما نحن فلا نزال نمارس البكاء على الأطلال ، ويظن الكثير منا أن خدمة الإسلام إنما تكون برفع الأصوات وامتلاك القدرة على الخطابة وإثارة العوام . واليوم تشكل اللجان ، وتقام مراكز البحوث والمؤسسات لإعادة كتابة التاريخ ، وتخطيط الثقافة بعيدًا عن العلماء والمفكرين المسلمين ولسوف تفرض دراساتُ هؤلاء نفسها ، لأن الساحة خالية من أي عطاء يذكر في هذا المجال ، والمحاولات إن وجدت فهي محاولات فردية لا تستطيع القيام بالعبء الكبير . والمؤسف أن الحواس الإسلامية قد أصيبت لسبب أو لآخر ، وأن الكثير من الإسلاميين لا يرى إلا لونًا واحدًا في العمل الإسلامي .

وبعـــــد :

فعلى الرغم من أن الكتاب الذي نقدمه تخصصي إلى حدٍّ بعيد فقد أصبحت الحاجة ماسة إلى الكتب التخصصية التي تبحث في المنهج ـ كما أسلفنا ـ بعد هذا الهراء الكثير الذي لا يسمن ولا يغني من جوع . وتأتي أهمية الكتاب من أن المؤلف ركز جهده على إبراز ملامح منهج علماء الحديث في الرواية والدراية واستطاع أن يذلل هذا الموضوع ليكون في متناول المثقف المسلم بشكل عام ، وأن يسلمه المفتاح الذي يمكنه من التعامل مع كتب الأصول ويعرفه بالمنهج الذي يحكمها .

والمؤلف متخصص في هذا العلم ومدرِّس له ، وله محاولات مشكورة ومقدورة في ترجمة هذا المنهج إلى واقع معاش ، وقد أفاد من قضايا التخصص فوضع كتابًا في قواعد الدعوة إلى الله ، يجمع بين التخصص الأكاديمي والتجربة الميدانية في مجال الدعوة . والله نسأل أن ينفع به ويلهمنا رشدنا ويهدينا سواء السبيل .

مقدمة

■■ إن الحمد لله ، نحمده تعالى ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا . وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، بلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، فصلوات الله وسلامه على النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليمًا كثيرًا . وبعد :

فلقد كثر الكلام في هذا العصر عن المنهجية والفكر المنهجي ، حيث أصبح لكل علم منهجه الذي يضبطه بكلياته وجزئياته . ونحن لا ننكر ، ولا يجوز لنا أن ننكر ، أن العالم من حولنا قد تقدم في مناهج البحث والتفكير ، كما تقدم في مناهج العمل والتطبيق . وأصبحت فروع المعرفة ترتبط ارتباطًا عضويًا لا عفويًا .

ولكن هذا التقدم يأخذ طابع الشكلية المنهجية أكثر مما يأخذ طابع الحقيقة المنهجية ؛ وها نحن نجد الكثير من الباحثين يأخذون بالطريقة المنهجية في التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والأخلاق ، ولكنهم لا ينطلقون من البدايات الأصولية المنهجية ، وإنما ينطلقون من فروض تحكُّميَّة ، ويكفي مثالاً على هذا أن هذه

المناهج تنطلق من تصور منحرف يدعي العلمانية القائمة على فصل الكون عن الخالق ، وقد يُغْرِب هذا التصور فينطلق من إنكار الخالق ، وهذا أصل الانحراف والضلال في المناهج الحديثة ، وهو الذي يبعدها عن الحقيقة المنهجية .

ولقد انطلق القرآن الكريم يؤصل هذه المنهجية الحقيقية منذ نزول أول آية منه : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ حتى آخر آية نزلت ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ** ﴾ ولقد فَصَل القرآن الكريم بين مرحلتين من تاريخ المنهجية : **مرحلة الأسطورة** والفكر المثالي الغارق في الخيال ، والفكر الحسِّي الغارق في الأوحال ، وغير ذلك من أنواع الضلال ، فهدم كل هذا ولم يُبق إلا على القليل من الخير فيه ؛ **ومرحلة الهدى** وهي المنهجية الحقيقية الأصولية التي مدت ظلالها إلى جميع فروع المعرفة ، ومن هذه المنهجية القرآنية استمدت جميع المناهج الإسلامية ، ومن بينها منهجية علماء الحديث .

هذه القضية المنهجية هي الفكرة الأولى في هذا الكتاب « **الفكر المنهجي عند المحدثين** » الذي جاء تأليفه استجابة لرغبة سعادة وكيل رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر على إثر محاضرة ألقيتها بدعوة من الرئاسة كان موضوعها « **منهجية علماء الحديث** » ، وكان لها صدىً طيب في أوساط المثقفين المسلمين ، ولا سيما بعد نشر خلاصتها في مجلة **الأمة** الغراء ثم في « **المسلمون** » الغراء ، وقد

كتب إليَّ بعض القراء يطلب مزيدًا من التوسع في هذا الأمر ، فوجدت فسحة من الوقت أمكنني فيها الوفاء بما وعدت ـ والحمد لله ـ .

وليس كتاب « **الفكر المنهجي عند المحدثين** » كتابًا تفصيليًّا في المعرفة الحديثية ، ولم يكن هذا غرضه ، وإنما هو كتاب في الفكر يذكر الأسس المنهجية ، ويجيب على تساؤلات ، ويرد على شبهات ، ويعمِّق ولاء المسلم وانتماءه ، وقد يصلح لعرض جزء من المعجزة الإسلامية في ميدان السنة ، والفكر العالمي بحاجة إلى مثل هذا الموضوع على درجة أكبر من التفصيل والبيان .

وقد بينت في هذا الكتاب أمورًا قد تكون عناوينها مألوفة ؛ ولكنني حاولت ـ ما أمكن ـ أن أقدم الجديد إمّا في أصل الفكرة وإمّا في تطوير ما كتبه السابقون . ففي مفهوم السنة والحديث ذكرت المصطلحات اللغوية والشرعية ولكنني خلصت إلى أن كلمة سنة فيها معنى التكرار والاعتياد والتقويم وإمرار الشيء على الشيء . وسنة النبي ﷺ تحمل هذه المعاني لما فيها من جريان الأحكام واطّرادها وصقل الحياة الإنسانية بها ، فيكون وجه المجتمع السائر على هديها ناضرًا بخيرها وبركتها .

وناقشت مسألة حجم الأحاديث الصادرة عن النبي ﷺ وبينت دور المنهج في الاقتصار من هذا الحجم الهائل على ما توافرت فيه الشروط المنهجية في الإثبات ، كما تكلمت عن تفاوت الصحابة في

الرواية ، لمعالجة شبهة إكثار بعض الصحابة من الرواية . وفي موضوع كتابة الحديث ناقشت مسألة النهي عن كتابة الحديث زمن النبي ﷺ وبينت أن هذا النهي نهيٌ منهجي أدى إلى تواتر القرآن وحفظه ـ بتوفيق الله ـ وعمل على تأكيد أهمية الصحبة والممارسة ، لكي يبقى الصحابي مشدودًا إلى نبيه ﷺ لا ينشغل عنه بالكتابة ، بل سبيل التلقي عنه الصحبة والمعايشة .

وتكلمت عن الفتنة وأثرها على الحديث ، وخالفت المستشرقين وأتباعهم في قولهم بأن الفتنة عصفت بالحديث وشكَّكَتْ في أصوله ؛ فبينت أن هذه الفتنة أعطت الحديث أكثر مما أخذت ، وكانت حافزًا مُلِحًّا على ضبط الرواية منذ بدايتها ، وهكذا فقد أفادت المنهجية الإسلامية ، ولا سيما في زمن الصحابة الكرام الذين هم أهل السنة ونَقَلَتُها المباشرون . فكانت الفتنة سببًا مباشرًا في إرساء المنهجية عند المحدثين .

وناقشت مسألة الإسناد ومحاولة أعداء الإسلام في التشكيك بأن الإسناد جاء متأخرًا بعد قرن من الرواية ، وبينت أن الصحابة لم يشترطوا السند فحسب ، بل اشترطوا السند السالم من الوهم والخطأ .

ثم تناولت البناء المنهجي لعلوم الحديث على أساس تقسيمه إلى فرعين : الرواية والدراية ، وحاولت أن أقدم للقارىء الصورة المنهجية المتكاملة .

وقد خصصت ثلث الكتاب ـ تقريبًا ـ للكلام عن مناهج أشهر المحدثين ، وأشرت إلى المزايا المنهجية في كل كتاب من هذه الكتب ، وذلك لأقرِّب شباب الإسلام إلى هذه المصادر العظيمة ، وليتقدموا للتعامل معها مباشرة ، ولينهلوا من معينها الذي طالما حاول الأعداء أن يعكروا صفوه ليفصلوا بين الأمة ومصادرها المنهجية .

وفي أثناء الكلام عن مناهج كتب الحديث ذكرت أمثلة يسيرة ربما كان الإكثار منها مفيدًا ولكنه يخرج بالموضوع عن خطة سلسلة « **الأمـة** » وغايتها ، التي هي الإطلالة والإحالة ، أكثر من التخصص والتعمق . وسترى ـ أخي القارىء ـ في الصفحات الأخيرة رسومًا توضيحية لم أجد غنًى عنها لبيان الصورة وتقريبها .

وعلى كلٍّ ، فهذا الكتاب « **الفكر المنهجي** » بين يديك ـ أخي القارىء ـ فالتمس لي العذر إن أخطأت أو خانتني العبارة ، وإن أصبت فمن الله تعالى ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب ذخيرة عنده ، وأن ينفع به شباب الإسلام السائر على درب الهدى ولا يسعني في الختام إلا أن أتقدم بالشكر لرئاسة المحاكم الشرعية على رعايتها للعلم وحرصها على إيصال الخير إلى من ينتفع به إن شاء الله . والحمد لله رب العالمين . ■■

الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

مَنهجيّة قرآنيّة عَامّة

أكرم الله ـ تعالى ـ هذا الإنسان بأن أنزل عليه كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فصبغ هذا الكتابُ الحياة بصبغته ، ونظَّم شؤونها وفق أحكامه ، وقد سار هذا التنظيم في مسارين متلازمين في العقيدة والشريعة ، وتتناول العقيدة ـ فيما تتناول ـ التصور والتصديق ، وتأخذ على عاتقها إنشاء الأسس الفكرية ، وإرساء المنهج الرشيد القائم على المحاكمة والاختبار ، وهذه المنهجية منضبطة في أصولها ومساراتها وأحكامها ، وترتبط جزئياتها بكلياتها ، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يخرج عليها إلاَّ إذا تنازل عن دواعي العقل ومنطق الرشد . ولقد حقق القرآن الكريم هذه المنهجية في أوسع مجالاتها وأوضح صورها ، وأطلق القرآن ـ بهديه وجدله ـ العقل الإنساني من إساره ، وحرره من هيمنة الجمود والتبعية والتقليد . فبينما كان الإنسان قبل الإسلام رهين الأساطير والخرافات والأوهام ، وقد أغلقت عليه الأساطير جميع المنافذ والأبواب ، وأحكمت قبضتها على خناقه ، وعمت أرجاء الأرض حتى لم يسلم منها شعب من الشعوب ، وانسجامًا مع سلطان الأسطورة ظن العرب ـ في بداية الأمر ـ أنَّ القرآن الكريم ضَرْبٌ من هذه الأساطير . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفرقان : ٥) وقال حاكيًا مقالتهم : ﴿ لَقَد وُعِدْنَا هٰذَا نَحنُ

وَآبَاؤُنَا مِن قَبل ، إن هٰذَا إلاَّ أَسَاطِيرُ ٱلأوَّلِين ﴾ (النحل : ٦٨) . وقال تعالى : ﴿ إذَا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آيَاتنا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلأوَّلِين ﴾ (القلم : ١٥) ، والأسطورة خيال كاذب ، وخرافة باطلة . والقرآن نور وهدىً ومنهج وفرقان ورحمة وصدق وشفاء لما في الصدور . ولقد حارب القرآن الكريم الأسطورة والخرافة ، وحارب الكذب والوهم ، وحذر من نتائج الخطأ والنسيان ، وطالب بالبرهان والدليل والبينة والشاهد ، وشرع في إقامة منهج التثبت والصدق ؛ لأنه أساس تقوم عليه العقيدة الصحيحة والشريعة الصالحة . قال تعالى : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ ٱلظَّن وَمَا تَهْوىٰ الأنفُسُ ، وَلَقَد جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلهُدى . أَم لِلإنسَان مَا تَمَنَّىٰ ﴾ (النجم : ٢٣ ، ٢٤) وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الإسراء : ٣٦) . وطالب بإقامة البينة على كل دعوىٰ ؛ فطالب المشركين بإثبات مدّعاهم قائلاً : ﴿ ٱئْتُوني بِكِتَابٍ مِن قَبْل هٰذَا أو أَثَارةٍ مِن عِلْمٍ ﴾ (الأحقاف : ٤) .

وحذَّر القرآن الكريم من خبر الفاسق الذي لا يلتزم بمبدأ الصدق والتثبت ، فقال : ﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إن جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبأ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُم نَادِمِين ﴾ (الحجرات : ٦) . ودعا العرب إلى التفكر والنظر والتدبر ، والتماس الشواهد والقرائن ، ومحاكمة المقولات السابقة . والابتعاد عن التقليد الأعمى ، وكان يقول لهم : ﴿ نَبِّئُوني بِعِلْمٍ إن كُنتُم صَادِقِين ﴾ (الأنعام : ١٤٣) ويقول : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إن كُنتُم صَادِقِين ﴾

(البقرة : ١١١) . وكان يقرر أن أولئك الجاحدين المنكرين إنما يفترون على الله الكذب ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ (المائدة : ١٠٣) .

هذه الآيات وغيرها كثير بل القرآن الكريم بمجموعه وجه العقل البشري إلى أهمية البحث والنظر ، وطلب عدم إلقاء الأذن إلى كل قول . وظهرت آثار هذه الدعوة المنهجية في جميع جوانب الحياة الإسلامية حتى اتبع هذا المنهج في كتابة القرآن الكريم وجمعه وتدوينه . ولقد ظهرت هذه المنهجية في أجلى صورها في الحديث النبوي الشريف ؛ بسبب ما دعت إليه الحاجة من رواية السنن وجمعها ونقدها وتصنيفها . واستغرق هذا الجهد المنهجي مدة طويلة ـ بل لم تنته هذه الفترة ـ لا سيما وأن معظم السنن جاءت من طرق آحاد من الصحابة ، ولم تنقل ـ كما نقل القرآن الكريم ـ بالتواتر ، وتعرض بعضها لأوهام الرواة وخطئهم ونسيانهم . ومن هنا كانت الحاجة ماسّة إلى تمحيص الحديث وتنقيته مما علق به . ولقد شعر المسلمون أن هذه فريضة من فرائض الدين ولا يجوز تعبدهم بخبر واهٍ أو بخبر مختلق مصنوع . وليتمكنوا من القيام بهذه الفريضة شرع لهم في حال نقدهم وبحثهم ما لم يشرع لهم في حال سائر حياتهم من نقد الرواة والكلام فيهم والطعن عليهم ؛ إذ هذا الأمر ـ خارج البحث في الحديث ـ غيبة مذمومة ، ومعصية مرذولة . قال حماد بن زيد : [كَلَّمْنا شعبة بن الحجاج أنا وعبّاد بن عبّاد وجرير بن حازم في رجل ؛ وقلنا : لو كففتَ عن ذِكره ، فكأنه لان ، وأجابنا ، ثم مضيت يومًا أريد الجمعة فإذا شعبة ينادي من خلفي ، فقال : ذاك الذي

قلت لكم فيه لا يسعني][1]. وفي حادثة أخرى : قيل لشعبة بن الحجاج : [يا أبا بسطام ، لو كففتَ عن نقد الرجال ، فقال : أجِّلوني حتى أنظر الليلة فيما بيني وبين خالقي ، هل يسعني ذلك ؟ قال : فلمَّا كان من الغد خرج علينا على حُمَيِّر له ، فقال : قد نظرت فيما بيني وبين خالقي فلا يسعني إلاَّ أن أُبيِّن أمورهم للناس ، والسلام][2] . ومن ذلك ما ورد عن عبدالله بن المبارك أنه قال : [المعلّى بن هلال هو ، إلاَّ أنّه إذا جاء الحديث يكذب . فقال له بعض الصوفية : يا أبا عبد الرحمن : تغتاب ؟ فقال : اسكت ، إذا لم نبين ؛ كيف يعرف الحق من الباطل ؟ أو نحو هذا من الكلام][3] . وعن يحيى بن سعيد قال : [سألت شعبة وسفيان ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة عن الرجل يُتهم في الحديث أوْ لا يحفظه ، قالوا : بيِّن أمره للناس][4] .

فهؤلاء العلماء الأعلام بيَّنوا عذر المحدثين في القدح والطعن في الرواة ، لما في ذلك من مصلحة للإسلام وحرص على شرعه . وقد تناول الإمام مسلم مسألة ذكر أخطاء الرواة وبيان أوهامهم ، فقال في مقدمة كتابه « التمييز » : « فإنك ـ يرحمك الله ـ ذكرت أن قِبَلَكَ قومًا ينكرون قول القائل من أهل العلم : هذا حديث خطأ ، وهذا حديث صحيح . وفلان يخطىء في روايته حديث كذا ، والصواب ما روى فلان بخلافه ، وذكرت أنهم استعظموا ذلك من قول من قاله ، ونسبوه إلى اغتياب

---

(١) الكفاية للخطيب البغدادي/٩٠ .

(٢) الكفاية للخطيب البغدادي/٩٠ .

(٣) المصدر نفسه/٩١ .

(٤) الكفاية للخطيب البغدادي/٨٨ .

الصالحين من السلف الماضين حتى قالوا : إنَّ من ادعى تمييز خطأ رواياتهم من صوابها متخرص بما لا علم له به ، ومُدَّعٍ علم غيب لا يوصل إليه »[٥]. ثم يواصل كلامه حول نقد الرجال وبيان أوهام العلماء قائلاً : « ومع ما ذكرت لك من منازلهم في الحفظ ، ومراتبهم فيه فليس من ناقل خبر وحامل أثر من السلف الماضين إلى زماننا ـ وإن كان من أحفظ الناس وأشدهم تَوَقِّيًا ـ إلاّ والغلط والسهو ممكن في حفظه وإتقانه »[٦] .

وبينما يقرر الإسلام بمبادئه العامة براءة المسلم باعتبارها الحالة الأصلية فلا يتعلق شيء بذمته إلاّ بدليل فإنّ هذا المسلم لا يكون بريئًا عند المحدث إذا روى حديثًا إلاَّ إذا ثبتت عدالته ، وتحققت براءته ، حتى مستور الحال ؛ وهو الذي عرفت عدالته في الظاهر ولم تعرف في الباطن أي عُرف بانتسابه للإسلام ولكن أخلاقه وتصرفاته ليست معروفة عند العلماء ، فمثل هذا لا تدخل رواياته في الصحيح عند جمهور العلماء .

وبذلك يتبين لنا أن منهج المحدثين هو منهج قرآني مستمد من القرآن والسنة ، وأنه منهج تاريخي نقدي ، أي أنه منهج لا يُسَلِّم بالنص دون محاكمة ونقد ، ولا يكفي أن يصدر النص عن عالم أو شخص له احترامه حتى يُقبل ، بل لا بد أن تثبت نسبة النص إلى قائله ، وأن ينظر فيه نظرة ثاقبة فاحصة لمعرفة اتفاقه مع الأسس الثابتة والمبادىء العامة . ولقد غاب هذا المنهج التاريخي النقدي عن التوراة والإنجيل ، وغاب عن سائر

(٥) التمييز للإمام مسلم ـ اللوحة ٢/أ .
(٦) التمييز للإمام مسلم ـ اللوحة ٢/ب .

التواريخ قبل الإسلام . ثم جاء الإسلام ليمنح العالم أجمع هذا المنهج المسؤول القائم على البحث والاستقصاء والتفكير السليم . وقد جعل « شارل جنيبير » منهج النقد التاريخي مقابلاً للمنهج الإيماني النصراني الذي يأخذ الروايات عن السابقين دون مناقشة ومحاكمة .

لقد أغفل كثير من الباحثين هذه العلاقة المنهجية بين القرآن الكريم وعلوم الحديث ، حتى تسرب إلى الأذهان أن منهجية المحدثين نوع من العبقرية الفذة ، وأنها نشأت من الحاجة وحدها . والحقُّ الذي لا مِرْية فيه أنّ منهجية المحدثين منهجية قرآنية ، وأنها مظهر من مظاهر إعجاز هذا الدين ، وكما حفظ الله كتابه الكريم من كل تبديل أو تغيير ، فقد حفظ السنة بمجموعها ، وصانها من الاندثار والنسيان .

مفهوم السنة والحديث

إن عناية المسلمين ـ ابتداءً من الصحابة الكرام ـ بالحديث وعلومه كانت ثمرة معرفة عميقة وأكيدة بالسنة ومعناها والحاجة إليها . فقد تلقى الصحابة رضي الله عنهم هذا الدين عن رسول الله ﷺ ، وكان ما يتلقونه إمّا قرآنًا يتلى ويُتعبد به ، وإمّا أقوالاً وأفعالاً وتقريراتٍ وصفات صادرة عن النبي ﷺ باعتباره رسولَ رب العالمين . وكان مما أخبرهم به كتاب الله تعالى أن محمدًا ﷺ معصوم في قوله وفعله وإقراره وصفته : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . إن هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم : ٤) . وقال لهم : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾ (الحشر : ٧) وجعل طاعتهم له سببًا في هدايتهم : ﴿ وَإن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ (النور : ٥٤) وَحذَّر الذين يخالفون أمره : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَن أَمرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتْنَة أَوْ يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيم ﴾ (النور : ٦٣) . ومن هنا فقد أدرك الصحابة رضي الله عنهم معنى شهادة « أن محمدًا رسول الله » وأنها شِقُّ الركن الأول من أركان الإيمان ، وأن مقتضى هذه الشهادة التسليمُ بجميع ما جاء به هذا النبي الكريم ﷺ .

ولمّا كانت مهمة الرسول ﷺ تتناول الدنيا والآخرة ، والفرد والجماعة ، والرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والعقيدة والشريعة ، والسر والعلن ، فقد كان عليهم أن تستيقظ قلوبهم وعقولهم وأبصارهم

وأسماعهم لمتابعته والسير على هديه ، وأدركوا أن أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته في أحواله كلها سُنَّة .

السنة في اللغــة والاصــطلاح :

والسنة في اللغة من مادة (سَنَّ) . يقول ابن فارس في « معجم مقاييس اللغة » : (السين والنون أصل واحد مُطَّرِد ، وهو جريان الشيء ، واطراده في سهولة . والأصل قولهم : سَنَنْت الماء على وجهي أَسُنُّه سَنًّا إذا أرسلته إرسالاً)[٧] .

وقال ابن الأعرابي : (السَّنُّ مصدر سَنَّ الحديد سَنًّا ، وسَنَّ للقوم سُنَّةً وسَنَنًا ، وسَنَّ الإبل يَسُنُّها سَنًّا إذا أحسن رِعْيَتَها ، حتى كَأَنَّه صقلها . وَسَنَّنَ المنطق حَسَّنه ، فكأنه صقله) . وتابع صاحب « لسان العرب » في ذكر معاني هذه المادة اللغوية التي تدور على معاني الجريان والاطراد والصقلِ والإحداد . ولما كان الوجه مجمع الحسن أطلق عليه : سُنَّة . قال ذو الرمّة :

بيضــاءُ في المــرآة سُـنَّتُهــا ملساءُ ليس بها خالٌ ولاَ نَدَبُ[٨]

وسُنَّة النبي ﷺ تحمل هذه المعاني اللغوية ؛ لما فيها من جريان الأحكام واطرادها ، وصقل الحياة الإنسانية بها ، فيكون وجه المجتمع السائر على هديها ناضرًا بخيرها وبركتها . ويستفاد من المعاني اللغوية أن السُنَّة فيها معنى التكرار والاعتياد ، وفيها معنى التقويم ، وإمرار الشيء على الشيء من أجل إحداده وصقله .

(٧) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ٦٠ .
(٨) لسان العرب لابن منظور ـ مادة (سنن) .

وسَنَّ الله سُنَّة أي بين طريقًا قويمًا ، وسُنَّة الله أحكامه وأمره ونهيه . وقد ورد ذكر السُّنَّة والسُّنَن في القرآن الكريم سبع عشرة مرة ، وفي جميع المواضع يكون المعنى : أحكام الله الجارية المطردة .

وأمَّا في الاصــــطلاح :

فالسنة ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلُقية من مبدأ بعثته حتى وفاته . وقد تأتي السنة قولاً أو فعلاً من الصحابة باعتبارهم شهود عصر النبوة المقتبسين من مشكاتها ، أوْ من التابعين باعتبارهم شهودَ عصر الصحابة ، وأقرب الناس إلى عصر النبوة .

وأما الحــديث : فهو أعمّ من السنة من حيث المفهوم ؛ إذ أنه يزيد على السنة في تناوله لكل ما صدر عن النبي ﷺ حتى ولو كان منسوخًا ليس عليه العمل ، ويتناول صفات النبي ﷺ الخِلْقية من حيث لونُه وجسمُه وشعره وطوله ، وصفاته الجِبِلِّيَّة من حيث صحته ومرضه ، وما يميل إليه من الطعام وما لا يرغب فيه . فليس المقصود برواية هذه الأمور الجريان والاعتياد والاتباع ، وإنما المقصود ـ عند روايتها ـ الوقوف على عصر النبوة ، ومعرفة النبي ﷺ حتى يصبح شخصه وعصره ومراحل سيرته على تمام الوضوح والجلاء . وقد وضَّح علماؤنا هذا التفريق بين الحديث والسنة ، ورُوي عن ابن مهدي أنه قال : « سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة ، والأوزاعي إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعًا »(٩) . ومعنى ذلك أن سفيان

(٩) تنوير الحوالك ، شرح موطأ مالك ، ١٠/٣ .

الثوري أكثر رواية للأخبار ومعرفة بالنقد وبالرجال ، والأوزاعي أعلم بالطريقة العملية من سنن الأقوال والأفعال والأخلاق ، ومالك جمع بين الأمرين ، بين الطريقة العملية وبين الرواية والنقد .

وانسجامًا مع هذا التفريق فإن أخبار الجاهلية المروية في كتب الحديث تدخل في الحديث ولا نطلق عليها مسمى السنة ، وكذلك الأحاديث المنسوخة كحديث الوضوء مما مست النار ، وهو ما صح عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الوضوء مما مسَّت النار ، ولو من ثور أَقِطٍ . قال : فقال له ابن عباس : يا أبا هريرة : أَنتوضأ من الدهن ؟ أَنتوضأ من الحميم ؟ قال : فقال أبو هريرة : يا بن أخي : إذا سمعت حديثًا عن رسول الله ﷺ فلا تضرب له مثلًا »(١٠) . فهذا الحديث يفيد أن من يأكل أو يشرب ما طبخ على النار فإنه يتوضأ بعد ذلك . والسنة ليست على هذا ، بل على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما . قال أبو عيسى الترمذي : « والعمل على هذا ـ أي ترك الوضوء مما مست النار ـ عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم ؛ مثل سفيان الثوري وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحٰق ، إذ رأوا ترك الوضوء مما مست النار . وهذا آخر الأمرين من رسول الله ﷺ وكأن هذا الحديث ناسخ للحديث الأول : حديث « الوضوء مما مست النار »(١١) .

---

(١٠) أخرجه الإمام الترمذي في جامعه ١/١١٤ وابن ماجه ١/٩٢ ، والأقِط : اللَّبَن الجاف . والثَّور : القطعة منه .

(١١) جامع الترمذي ١/١١٩ ـ ١٢٠ .

ونخلص من هذا إلى أن الحديث أعم من السنة ، فكل سُنَّة حديث ، وليس كل حديث سُنَّةً . والسنة هي غاية الحديث وثمرته . ومن السنة ما يفيد الوجوب أو الحرمة ومنها ما يفيد الندب أو الكراهة ومنها ما يفيد الإباحة . وهذا مدلول السنة عند المحدثين ، وأمّا الفقهاء فالسنة عندهم نوع من الأحكام الشرعية ، وهي ما أفاد الاستحباب والندب .

مصدرية السُنة للأحكام والاحتجاج بها

السنة مصدر من مصادر الأحكام الشرعية لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُم ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾ (الحشر : ٧) . وعندما يرتب العلماء مصادر الشريعة قائلين : القرآن ثم السنة فإن هذا الترتيب ترتيب في الذِّكر والشرف ، ولا يؤخذ بمعنى أن السنة متأخرة في مصدريتها عن القرآن الكريم . ولقد عَنْون الخطيب البغدادي فصلاً من كتابه « الكفاية » فقال : « باب ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سنة رسول الله ﷺ من حيث وجوبُ العمل ولزومُ التكليف »[١٢] .

ولا ريب أن السنة في معظمها تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث ثبوتها ؛ إذ القرآن الكريم كله متواتر ، وقليل من السنة ما نقل بالتواتر . وأمّا من حيث إفادتُها للأحكام الشرعية ، فالقرآن يحلل والسنة تحلل ، والقرآن يحرم والسنة تحرّم ، والقرآن الكريم يندب والسنة

(١٢) الكفاية للخطيب البغدادي ص/٣٩ .

تندب ، والقرآن الكريم يبيح والسنة تبيح . فالسنة مثل القرآن الكريم في التشريع وإفادة الأحكام . وقد روى المقداد بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إني أوتيت القرآن ومثله ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السباع ، ولا لقطة معاهَدٍ إلاَّ أن يستغني عنها صاحبها »[١٣] .

ولمَّا كان القرآن الكريم كتاب تَعَبُّدٍ وتلاوة كانت آياته محدودة ، وكلماته معدودة ، وهو دستور مجمل ، يُعنىٰ بالكليات أكثر مما يُعنىٰ بالفرعيات والجزئيات ، وما ورد فيه من تفاصيل الأحكام قليلٌ كما في آيات المواريث ؛ ولذا فقد أحال القرآن الكريم على السنة لتبيين الأحكام ؛ على وجه الابتداء ، أو التفريع ، أو النسخ . والقرآن الكريم من غير سنة لا يمكن فهمه ولا يمكن تطبيقه . والذين يقبلون القرآن وحده ، ويشككون في السنة إنما يحاربون القرآن بأسلوب ذكي ، قد يغيب عن كثير من المسلمين ، وهم يعملون على تعطيل القرآن عن العمل ؛ فالقرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن ، هكذا قال مكحول[١٤] .

(١٣) أخرجه أبو داود في سننه ٥/١١ ، والترمذي بمعناه ٥/٣٧ وابن ماجه في المقدمة ، وأخرجه الخطيب البغدادي في الكفاية ص : ٣٩ وأخرجه محمد بن نصر في كتاب السنة ص/١١٦ .

(١٤) الكفاية / ص ٤٧ . ومكحول أحد كبار التابعين ، وهو الفقيه الدمشقي إمام أهل الشام ، توفي (سنة ١١٣هـ) تهذيب التهذيب ١٠/٢٨٩ .